القارئ في كتاب إعجاز القُرآن للباقلاني (ت ٤٠٣هـ)

الكلمات المفتاحية: القارئ، إعجاز، القُرآن الكريم

م٠م٠ ليث سامي علوان
المديرية العامة لتربية ديالى
Latih@yahoo.com

أ.د٠ اياد عبد الودود عثمان
جامعة ديالى/كلية التربية للعلوم الانسانية
metonymyman@yahoo.com

الملخص

يقوم هذا البحث على محاولات تنظيرية لرصد أنواع القُرّاء من خلال تتبّع مظاهر التفكير النقدي عند الباقلاني في كتابه (إعجاز القُرآن)؛ فقد استحضر أنواعًا من القُرآء؛ فهناك قارئ محاور، وآخر سائل، وقارئ قريب، وقارئ شاك، وصولًا إلى القارئ القائل، والحمد لله ربّ العالمين.

المقدمة

الحمدُ لله ربِ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على خاتمِ الأنبياءِ والمرسلين، المبعوثِ رحمةً للعالمين، سيدنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبه أجمعين. أما بعد:

فلا شكَّ أَنَّ للقارئ أثرًا فاعلًا في إثراء العمل التأليفي لأي كتاب كُتِبَ في أي علم من العلوم؛ فقراءة الكتاب رسالة هادفة معبرة يرسلها القارئ إلى المؤلف يرصد فيها مواطن الجمال والإبداع للنص المقروء، أو الكشف عن عيوب النص، لا ريب أنَّ القُراء يتفاوتون بحسب ثقافتهم واتجاهاتهم المعرفية؛ فيتنوعون لأجل ذلك كما تتنوع قراءاتهم، وإنَّ من أجّل المقروء ما كتب فيه مؤلفه مدافعًا عن إعجاز القُرآن، ومدافعًا عن كتاب الله العظيم.

تمثل القراءة اتصالًا روحيًا وعقليًا مع المادة المقروءة؛ إذ إنَّها أداةً فاعلةً للتواصل والاتصال بين المؤلف ومادته، وبين المتلقي الذي يقرأ، ويحلل، ويفك رموزًا وشفرات قد تكون أَحيانًا غائبة عن ذهن المؤلف نفسه. يدرس هذا البحث أنواع القراءة عند الباقلاني؛ فالقارئ متمركز في ذهنهِ، وقد فصّل البحث القول في ذلك محاولًا التنظير باختصارٍ وتأنٍ مستعينًا بمنهج وصفي يفيد من التفكير النقدي المعاصر في الكثير من إجراءاته، وخلص البحث إلى خاتمة أوجزت أهم النتائج والملاحظات العلميّة، والله اسأل التوفيق والسّداد.

أوّلًا: القارئ السائل:

من المرتكزات الرئيسة في العمليتين النقدية والإبداعية تقوم فكرة السؤال والجواب، السؤال الذي يعطي ـ في بعض الأحيان ـ دلالات وإيحاءات كثيرة تؤدي بالمؤلّف أو القارئ إلى

اكتشاف أشياء لم يكن يعرفها، وهو في الوقت ذاته يبحث عن أجوبة لأسئلة لم يكن يعرفها، أو يتخبّط في إيجاد أجوبة لها، ممّا يفتح الأفق الإدراكي للوقوف على أمور من الواجب تفسيرها استكمالًا للتقويم.

وها هو الباقلاني في كتابه إعجاز القُرآن يفترض وجود قارئ؛ إذ يسأل (القارئ السائل) في مقدمة كتابه، قائلًا: ((وسألنا سائلٌ أن نذكر جملة من القول جامعة، تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهّال وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم، من الطعن في وجه المعجزة))[١]، إذ يبدأ الباقلاني ـ هنا ـ بافتراض سائل يسأله، وهو هنا يظهر شخصية قائمة بذاتها على أنّه (قارئ سائل)، فقارئه هنا قارئ مهم مشاركٌ له في إنتاج متن الكتاب، وصياغته وإعداده؛ فقد أراد من التركيز على اختيار أدلّة واضحة في جملٍ رصينة يبتعد قارئها عن الشكّ أو اللبس الذي يؤدّي إلى تأويل وفهم غير مدروس.

ولعلّنا نلحظ الباقلاني– هنا – يمنح قارئه حضورًا مميزًا بوساطة طرح الأسئلة، وهذه الأسئلة تؤدّي إلى توسيع آفاق المعرفة لدى القارئ.

وفي موضع آخر يبرز لنا قارئًا سائلًا على سبيل الاستفهام والمحاورة، فهو سائل تصنعه خيالات المؤلّف؛ فهو قارئ افتراضي متمثل في القارئ المثالي اقترحه للتفصيل في معرفة إعجاز القُرآن، والباقلاني يسأل عن إعجاز القُرآن من جهة ما يتضمّنه من البديع حين يقول: ((إنْ سأل سائل فقال: هل يمكن أن يُعرف إعجاز القُرآن من جهة ما تضمّنه من البديع؟))[٢]، وفي مكان آخر من الكتاب يبرز الباقلاني أنّه ـ بحسب قول المقدّرين ـ يمكن الإفادة من وجوه الإعجاز من البديع، لكنّه ينفي ذلك، بقولهِ: ((وليس كذلك عندنا؛ لأنَّ هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليهما أمكن التوصل إليها بالتدريب، والتعود، والتصنع لهما))[٣]، ولعلّنا نجد أنّ القارئ مبهمٌ نكرة، فهو من قبل المؤلّف، وكأنّه يُشير به إلى كلّ قارئ.

فالباقلّاني يُشير إلى سائلٍ واضحٍ غير مبهم، في موضعٍ آخر؛ يقول: ((وسألَ عليٌ، [...]، فقال (ﷺ) هُما توأمان ينتجهما عُلوّ الهمّة))[٤]، فالإمام عليّ (ﷺ) يسأل عن أحد ملوك الفرس، ويحاور كبراءهم، فيشيرون إلى أنّه صاحب حلمٍ في أموره كلّها.

إذ يضع الباقلاني سائله مبهمًا فاعلًا في تفسير عمله، موظفًا صيغة السؤال الاستفهامي، إذ يقول: ((هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظًا ومعنى، ولطيف هذه الحكاية، وتلازم هذا الكلام، وتشاكل هذا النظام؟، فكيف يهتدي إلى وضعِ هذه المعاني بشريّ، وإلى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنسيّ؟))[٥].

فقارئ الباقلّاني يسأل عن الكلمة وشرفها، وجودتها، ودقّتها، من حيث اللفظ والمعنى، وتطابق الكلام وتلازم حروفه مع بعضها، ويسال في الوقت نفسه، وفي المقطع ذاته عن إمكانيّة الإنسان في صياغة هكذا ألفاظ، القارئ السائل هنا قارئ متمكّنٌ من العربيّة، متبحّرٌ في علومها، وتأسيسًا فإنّه يترتّب على القارئ التمكّن من العمل الأدبي والوصول إلى مكنوناته، والقارئ غوّاصٌ ماهرٌ، يبذل الجهدَ، ويفكّر حتّى يصل إلى نتيجة قطعيّة لا شكّ فيها ((إنّ الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف، لا يبرز إلّا إنّ شُقَّ عنه، أو كالعزيز المحتجب لا يُريكَ وجههُ حتّى تستأذنَ عليه))[٦]، فوظيفة القارئ بحثيّة استقصائيّة، مثل الغوّاص الذي يبحث عن الجيد من اللآلئ، فهو مُكمّل للعمليّة التأليفيّة، ولا يُعدّ عمله هذا الذي قد يستنبط من فكر المؤلّف المبدع نفسه، أقول إنّ عمله هذا لا يُعدّ نافلة أو زيادة أو حشوًا لا طائل تحته، بل هو عملٌ متمّم لِما تقدّم تأليفه.

على الأديب أن يبتعد في أدبه عن الغموض وعدم الوضوح قدر الإمكان، ويكون أدبه واضحًا وصريحًا، حتى تتقبّله النفوس؛ لأن في الغموض ردّة فعلٍ من جانب المتلقّي؛ فيثير انتباهه ويدفعه إلى التفاعل مع النص في تلاقح بين شفافتين للمرسل أولًا، وللمُرسل إليه ثانيًا، ومن هنا يأتي تقرير عبد القاهر الجرجاني: ((إنّ أُنس النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيٍّ إلى جليٍ وتأتيها بصريحٍ بعد مكنيٍ))[٧].

فمراعاة ذهن القارئ عملية تواصلية مهمّة، تؤدّي بالنتيجة إلى القول بإبداع المؤلّف، وفي هذا البيان يقول الباقلّاني وهو يتحدّث في أسلوب القُرآن الفريد: ((فإذا كان نقد الكلام كلّه صعبًا، وتمييزه شديدًا، والوقوع على اختلاف فنونه متعذرًا؛ وهذا في كلام الآدميين، فما ظنّكَ بكلام ربّ العالمين؟!))[٨].

سائلُ الباقلّاني ـ هنا ـ يقف موقف المتعجّب في الوقت ذاته، فهو سائلٌ حاذقٌ متمرّسٌ، يبتعد عن الالتواء والتعقيد، وغايته تواصليّة مع قارئه على سبيل إدخال الأنس في النفوس، وإبعاد الملل عن نفسه، فهو يؤكّد أنّ نصّه ينقسم على نصين، نصّه الأول واضح بوساطة اللغة العربية وهو مفهوم للناظر والقارئ، أمّا الآخر فهو نصّ يُنتظر الجواب عنه(٩)، يفسره متدرجًا مع تساؤلات القارئ المفترضة، التي يقترح منها ما يراه مناسبًا في مكانه من السياق.

ثانيا: القارئ المحاور:

ما يهم أصحاب جمالية التلقي ـ ولا سيّما ياوس وآيزر ـ أنْ يتفاعل القارئ مع النص؛ إذ يدخل إلى أعماق النص ويتفاعل معه؛ ليكشف غموضه ويردم الفراغات، هذا التفاعل الذي يقوم على لعبة الحوار والأسئلة والأجوبة، هذه اللعبة لا تجري أو لا يكون لها مشاهدين من دون القراءة، والفهم، والتأويل التي بدورها تكمّل اللعبة لتؤدي إلى الهدف المنشود وهو إعادة لملمة شتات المعنى وإعادة إنتاج النص من جديد، وكلّ عمل أدبي لا يكتمل أو ينضج من دون القراءة(١٠).

فنلحظ الباقلاني يكثر المحاورة في كتابه إعجاز القُرآن موازنة باستعمال الفعلين المبنيين للمجهول حين توخى فيهما عدم تعيين قائل، وقد أشار إلى ذلك بالمضارع مرة. هنا قارئ محاور، نجده يتبع أسلوب المحادثة والمحاورة (قال وقيل) وهو أسلوب السؤال والجواب، فهو يكثر من أسلوب الحوار في كتابه من أجل الوصول إلى فكرة وغاية يرسمها في ذهنه لتصل إلى المتلقي، بأوضح أسلوب وأعلى قدرة على الامتناع بالرسالة التي تضمنت خطابًا مدعومًا بالحجة والاستدلال المنطقي العقلي.

إذ يطرح الباقلاني ما يرتبط بالإعجاز فيقول: ((إنَّ قال قائل: بينوا لنا ما الذي وقع التحدي إليه؟ أو غير ذلك؟- قيل الذي تحداهم به: أن يأتوا بمثل الحروف التي هم نظم القُرآن، منظومة كنظمها، [...]، ولم يتحدهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له))(١١).

إنَّ قارئ الباقلاني هنا يتحاور ويسأل أسئلة متنوعة في سؤال واحد، وهي في مجموعها ترتبط بالسؤال الآتي: أين يقع الإعجاز، فيجيب عليه أن مكمن الإعجاز والتحدي هو في

حروف القُرآن التي تحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بمثلها، فهو تحدٍّ إلهي من قبل الله سبحانه وتعالى، مع البشر الذين هم من خلق الله سبحانه وتعالى، فبينت هذه المحاورة أن سرّ الإعجاز إلهي بحروفه، فبعد أن يعرض المؤلف الوجوه المتعددة للإعجاز القُرآني يقف عند نظم القُرآن الذي يرى فيه بعد إثارة تساؤلات متنوعة أنه الوجه المعجز الأكمل والأشمل المنوط لتحدّي البشر جملةً وتفصيلًا وهي رؤية خاصة بمفسَّر كبير للنقاش، وإن كان له باع واسع في ميدانه.

إن استعمال (قال– قيل) تبدو واضحة في المحاورات التي أجراها قارئ الباقلاني المحاور في مواضع كثيرة لغاية الوضوح ووظيفة تأدية القصد بأوضح صورة وأحسنها بيانًا؛ مِمَّا يحث المتلقي على تلقي الفكرة بالقبول مذعنًا مستيقنًا، فهو يسأل وينتظر الإجابة، فالمحاورة الأولى كانت عن سرّ إعجاز القُرآن ولكن المحاورة – هنا – تختلف؛ وهذا دليل على حذق وبداهة قارئ الباقلاني المحاور في الانتقال من الإعجاز في الحروف إلى تفنيد مقولة إن في القُرآن كلام موزون كوزن الشعر، وإن كان غير مقفى، بل هو مزاوج متساوي الضروب، [...]، قيل: من سبيل الموزون من الكلام أن تتساوى أجزاؤه في الطول والقصر،[...]، وقد علمنا إن القُرآن ليس من هذا القبيل))[١٢].

قارئ محاور مُستند إلى قواعد المحاورة وأسلوبها في السؤال والجواب والتأكيد، فبدأ المحاورة بـ (قيل) ثمّ (قيل) السائلة الأخرى وتختم بالرد بـ (قد علمنا)، فالمؤلف ينفي أن يكون الخطاب القُرآني شعرًا لما علمت العرب بأوزان الشعر وقوافيه وأصول نظمه، وليس للقُرآن في نظمه أن يكون كما الشعر، وحاشا لله فهو كلام الله تعالى الذي يرتفع في أسلوبه عن لغة الشعر والنثر وقد بين جل جلاله معرفة العرب بذلك فقال عنهم:

﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٤/٨٢]

يبرز أسلوب المحاورة بين المؤلف والقارئ المحاور في مواطن عدّة في أثناء الكتاب، وتبقى المحاورة في بيان الإعجاز القُرآني وتبقى المحاورة قائمة على أساس قال وقيل السائلة، وقيل الأخرى للجواب ((فإن قيل: فهل تقولون بأن غير القُرآن من كلام الله (ﷻ) مُعجز، كالتوراة

والإنجيل والصحف؟ قيل: ليس شيء من ذلك بمُعجز في النظم والتأليف، وإن كان مُعجزًا كالقُرآن فيما يتضمن من الإخبار عن الغيوب))[١٣]؛ فهذه محاورة قائمة على السؤال والجواب فالقارئ المحاور يسأل والمؤلف يجيب، وتبقى المحاورة تدور في الدائرة نفسها، وهي أنّ القُرآن مُعجز وهو مُنزّلٌ من الله سبحانه وتعالى وإن كانت كل الكتب السماوية تتشابه في إن مُنزلها هو الله سبحانه وتعالى، فوصف القُرآن ونظمه وتحديه يختلف عن باقي الكُتب المُنزلة، ومن هنا فإنّ المؤلف يعزّز رؤيته في مسألة الإعجاز عبر إثارة ذهن المتلقي بتساؤل بديهي يوضح فيه ميزة القُرآن على بقية الكتب السماوية، فقد جاء بآيات منسقة بنظم فريد على خلاف التوراة والإنجيل اللذين تضمنا أوامر ونواهي فحسب وإن أخبِرا بغيب ولما يقع كالتبشير بنبوة محمد (ﷺ) قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦/٦١]

تحدّى الله (ﷻ) الإنس والجن أَنْ يأتوا بمثل هذا القُرآن، مع انه من جنس كلامهم وهو تحدٍّ واضح أظهر عجزهم، وهو ما استعمله الباقلاني في أسئلته وأجوبته ((فإنْ قيلَ: هذه دعوى منكم، وذلك أنّه لا سبيل لنا إلى أنْ نعلمَ عجزَ الجنّ عن [الإتيان] بمثله، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله، وإنْ كنّا عاجزين، كما أنّهم قد يقدرون على أمورٍ لطيفةٍ، [...]، قيل قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجلّ))[١٤].

فالتحدّي في إظهار إعجاز القُرآن باقٍ ((فإنْ قِيلَ: الذي يبنى عليه الأمر في تثبيت معجزة القُرآن: إنّه وقع التحدّي إلى الإتيان بمثلهِ،[...]، قيل: إنّما احتيج إلى التحدّي لإقامة الحجّة، وإظهار وجه البرهان (على الكافّة)))[١٥].

تبقى المحاورة بين السائل المحاور في سؤاله عن معجزة القُرآن، وأهمية التحدّي، وتحدّاهم الله (سبحانه وتعالى) أنْ يأتوا بمثله، فيجيب أن سبب التحديّ لبيان الحق ووضوحه، هنا يعرض المؤلّف وجهًا آخر للإعجاز بوساطة تحدّي العرب، وهم أمّة البيان والخطابة والشعر،

أن يأتوا بمثله، وهنا صرفهم الله عن الإتيان بمثله فتجاوز النظم مع الصرفة ليدلّان على الإعجاز، ولعلّ إثارة التساؤل عبر الحوار هو السبيل للتأمّل والإدراك والإقناع.

نجد أنّ أسلوب المحاورة الذي اعتمده الباقلاني قائمٌ على السؤال والجواب، ونجده في أغلب محاوراته يرتكز على إثبات معجزة القُرآن الكريم، فقارئه يسأل، وتأتيه الإجابة، والغرض من هذه المحاورة، من أجل إيصال فكرة مهمّة للقارئ ولمتذوّق القراءة، عن كيفيّة الإعجاز، لتجعل منه قارئًا عارفًا في مسائل الإعجاز.

إنّ الرسول الكريم (ﷺ) عرف القُرآن معجزًا حينما أُوحيَ إليه، قبل أن يعرفه أو يعلمه أو يُقرأ عليه: ((قلنا إنّ المتناهي في الفصاحة والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاصح، متى سمع القُرآن عرف أنّه مُعجِز، [...]، فإن قيل: فإنّ من الفُصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر، [...]، قيل: هو مع مستقر العادة))[١٦].

محاورة جميلة لسائل يسأل ويحاوره ويجيب المؤلّف حول سرّ الإعجاز للقُرآن الكريم، وإنّ الرسول الكريم عرف كونه معجزًا قبل أن يُقرأ عليه.

إنّ المعجزة والإعجاز خالدين لا يمكن لاحد أن ينكرهما، وهما باقيان إلى يوم القيامة، فالمعجزة لا تُحَدُّ وقت ولا مكان: ((فإنْ قال قائل: قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي (ﷺ) قد عجزوا عن الإتيان بمثل القُرآن، [...]، قيل: هذا سؤال معروف، وقد أُجيبَ عنه بوجوه))[١٧].

إنّ القُرآن معجزة، ولا يمكن لأحدٍ معارضته في علمه بالمسائل المستقبلية، أو القضايا الغيبيّة.

ولابدّ لقارئ الأدب، وكتب الإعجاز أن يفهم ويلملم ما قرأه من كتب الإعجاز وقضاياه المهمّة؛ فإنّ هذه القراءات في المتون الأصليّة، تجعل القارئ يجمع شتات صوره المبعثرة ليكون حقيقة مهمة، وهي ما توصّل إليه عبر المحاورات والأسئلة والأجوبة، وهو إنّ القُرآن مُعجز[١٨]، ممّا لا يجعل مكانًا للنقاش على وفق رؤية منطقيّة، جعلت من العقل وحواراته أساسًا لها، ومعززًا موجهًا لقيام أدلّتها بما يدحض الإنكار والشك.

((فإن قال قائل: أجدك تحاملت على امرئ القيس، ورأيت أنّ شعره يتفاوت بين اللين والشراسة، [...]، فالجواب: إنّ الكلام في أنّ الشعر لا يجوز أن يُوازن به القُرآن))[١٩]، لا يجوز الموازنة أو المقارنة بين الشعر والقُرآن، فالقُرآن كلام الله المعجز بنظمه، والشعر كلام البشر الذين خلقهم الله (ﷻ).

يتّضح من الحوارات والأسئلة والأجوبة للقارئ المحاور، إنّما انصبّت في أمر واحد وهو معرفة إعجاز القُرآن الكريم، وظل القارئ يسأل ويحاور على لسان المؤلّف، ليصل بنا إلى فكرة مهمة، وهي فكرة الإعجاز، التي ناقش أدلتها بوضوح، ودقّة، وموضوعية بوساطة رؤية علميّة لمُفسّر امتلك أدوات التفسير فطوّعها لخدمة بيان قراءة النصّ القُرآني من جهة نظمه، الذي صرف العرب أن يأتوا بمثله، بل الإنس والجن جميعا، فقال (ﷻ):

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/٨٨]

ثالثا: القارئ القريب:

إنّ القارئ الماهر والقريب من المؤلّف يكون ضليعًا بأمور الدراسة، متمكنًا من فك رموز وشفرات النص ((أي نصٍّ في حالة ظهوره من خلال سطحه أو تجلّيه اللساني يمثل سلسلة من الحِيل التعبيرية التي ينبغي أن يفعلها المرسل إليه))[٢٠].

إنّ على القارئ أن يفكّ رموز النصّ وشفراته، ومستويات النص الواحد بعد الآخر، وهذه مهمة القارئ الماهر المتمكن.

القارئ القريب تجده دائمًا قريبًا من المؤلّف واستقباله الكلام على الرغم من قِدَم المؤلّف، ومرور سنوات عدّة على تأليفه[٢١]، دائمًا نحس ونشعر بقرب ودنوّ القارئ القريب، بقرب المؤلّف بل تجده مشاركًا له، فهو يخاطبه وكأنّه موجودٌ في حصيلته الجمعيّة المستقرّة في ذهنه، ونلمس عِبر تعدد القراءة للمؤلف قراءة جمعيّة يشترك فيها القارئ بوصفه مؤلّفًا، والآخر بوصفه متلقيًا، حتّى تكتمل دلالة النص ويتّضح قصد منشئه.

((وقد تأمّلنا نظم القُرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه، [...]، في حسن النظم، وبديع التأليف والوصف، [...] وكذلك قد تأمّلنا ما يتصرّف إليه وجوه الخطاب))[٢٢].

إنَّ المتأمّل والمدقق والمشخّص لهذا النصّ من إعجاز القُرآن، يجد القارئ قريبًا من ذهن المؤلّف بإشارته إلى قوله (تأمّلنا) تدلّ على الشراكة المعنوية والذهنية للقـــارئ، واندماجه مع قارئه في نصّ واحد، فهو قارئ قريب ومشارك في استقراء دلالة النصّ.

يقول الباقلّاني في نفي الشعر عن أسلوب القُرآن المعجز: ((قد علمنا أنّ الله تعالى نفى الشعر عن القُرآن، وعن النبي (ﷺ)، فقال:

﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩ ﴾ [يس: ٣٦/٦٩]))[٢٣].

فالمؤلّف يستدلّ بالدليل القُرآني على صدق دعواه، نفى القُرآن الكريم في هذه الآية الشعر وتعليمه للنبي (ﷺ)؛ لأنّ الشعر يخلو من القصديّة؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى عندما أنزل القُرآن لم يقصد به شعرًا، والقارئ مزدوج هنا مع المؤلّف (علمنا) حتى لتجد أنّ كليهما واحدٌ بوساطة دقّة العبارة ومناسبتها للكلام المقصود، فعندما قال (علمنا) اختصّ لنفسه شخصًا قريبًا منه، أي شخصًا مشاركًا له في طرح السؤال أو إثبات حجّة.

إنّ قارئ الباقلاني قارئ نموذجي، فهو قارئ وقراءته نقدية، تتبادل فيهما القراءة بين المؤلّف والقارئ، فهو يبحث ويعلن عن حاجته إلى من يطّلع على نتائجه؛ أي إنَّ قارئه هنا قارئ قريبٌ من عقله وذهنه[٢٤].

يقول الباقلاني: ((وقد علمنا أنّ بعض ما يدعونه سجْعًا متقارب الفواصل، متداني المقاطع، وبعضهما ممّا يمتد حتّى يتضاعف طوله عليه))[٢٥]، ويبدو واضحًا أَنَّ الباقلاني منفتحًا مع قارئه، مشاركًا إيّاه في النوال مُناقشًا؛ لأنّه قريب من المؤلّف، فالمؤلّف يستكمل حديثه عن القُرآن، وردّ السجع عنه، فما قاله هنا هو سجع غير مرضيّ عنه، وغير محمود، فهو يشارك قارئه في إتيان إعجاز القُرآن، ولعلّنا ننظر هنا إلى فواصل القُرآن بمعزلٍ عن أسجاع الشعر، فالفاصلة القُرآنية مقصودة لذاتهـــــا، ذات دلالات

أرادها المتكلّم (جلّ جلاله) بقصد، ودون تكلّف وحاشاه.

الباقلاني في قارئه القريب أو المشارك في كلّ أموره، وإصدار الأحكام، نجده يقرّبه من عوالم معرفة الإعجاز، ثم ينتقل إلى كيفية الوقوف على إعجاز القُرآن، يقول: ((قد بيّنا أنّه لا يتهيّأ لمن كان لسانه غير العربية، من العجم والترك وغيرهم، أن يعرفوا إعجاز القُرآن إلّا بأن يعلموا أنّ العرب قد عجزوا عن ذلك))[٢٦].

على قارئ النصّ الجيد التعامل بحيادية حينما يفسّر النصّ، أو يؤوّله من أجل أن يصل إلى مرحلة الفهم وحسن التقدير للمتلقّي، أي أنّ على القارئ ((إنّ أي تفسير يتطلّب إطارًا مرجعيًا يمكن ربط النصّ المراد تفسيره به، إنّ مثل هذا الإطار يكون بمثابة أفق واسع للتفسير يقدم الأسئلة التي تستدعي إجاباتها من النصّ))[٢٧].

لابدّ للقارئ من معرفة ثقافية، وخزين معرفي من أجل تفسير أي نصّ، وهذه المعرفة والثقافة تمكّن صاحبها تقليب النصّ وتفسيره جيدًا.

إنّ التوضيح والتبيان، وإزالة الغموض عن النصّ من واجبات المؤلّف وقارئه القريب من خلال الاشتراك في توجيه السؤال والإجابة عنه، يقول الباقلاني: ((وقد بيّنا قبل هذا اختلاف القوم في الاختيار، وما يجب أن يُجمعوا عليه، ويرجعوا عند التحقيق إليه))[٢٨].

إنّ على القارئ أن يكون منتجًا، حينما يسمح له النصّ بأخذ النص المقابل للتأويل والمطاوعة، وليست كل النصوص تحتمل إمكانية التفسير والتأويل، لذلك تبقى للقارئ الحرية في اللعب بالنص، فاختلاف القوم في أمر ما، واعتراضهم، وعدم اتفاقهم يسمح للقارئ المتمركز في ذهن المؤلف القدرة على الإفادة من هذا الخلاف، وإعادة الإنتاج من أجل أن يصل إلى هدفٍ معين ومحدد، وهذا هو نتيجة هذا الاختلاف، وهو ما يؤدي بالنتيجة إلى اتساع أفق المتلقي ورؤيته للموضوع الذي هو بصدد التوصل إلى قناعة فيه[٢٩].

يريد الباقلاني (ت٤٠٣هـ) من قارئه ان يتبع منهج محدد في قراءته وتفسيره وتأويله، وضرورة اتباع ومعرفة شروط الإعجاز وأين تقع ((وقد علمنا أنّه تحدّاهم إلى السور كلّها، ولم يخصّ، ولم يأتوا بشيءٍ منها بمِثل، فعُلِمَ أنّ جميع ذلك مُعجِز))[٣٠]، تحدّاهم الله (ﷻ) أن

يأتوا بآية أو سورة من مثله، بل التحدي في السور كلّها؛ لأنّ السور كلّها معجزة، وعجزهم عن كلّ سور القُرآن؛ لأنّها كلّها تشتمل على الإعجاز.

إنّ قارئ الباقلاني مستمد من مخيلته الذهنية، ووجوده يظهر من أجل التفاعل بين النص والقارئ، واستحضر المؤلّف هذا القارئ من أجل إضافة المتعة والتشويق في إبراز الكتاب في أحسن وجه.

وعلى الكاتب أن يجعل في نفس القارئ نشاط فكر الكاتب، وأن يلامس مشاعره لكي يصل إلى الإعجاب بالجمال[٣١].

رابعًا: القارئ الشاكّ أو الظانّ:

((إنّ صورة القارئ تكون حاضرة باستمرار في وعي الكاتب، حتّى ولو كانت مجرَّدة))[٣٢].

إنّ للقارئ وجودًا في ذهن ومخيّلة الكاتب أو المؤلّف، وهنا المؤلّف يبتعد من هذا الأمر بوساطة تبادل المواقع مع القارئ، وهذا التبادل يجعل من ذهنية المؤلّف ذات انفتاح أكبر وأوسع، وهذا الانفتاح يتيح له التعرف على أشياء جديدة لم يكن يعرفها.

يقول الباقلاني: ((فأمّا أن يظنّ ظانّ، أو يتوهّم متوهّم أنّ جنس الشعر معارض لنظم القُرآن))[٣٣]، قارئ الباقلاني ـ هنا ـ هو قارئ جديد، وهو قارئ يسميه الباقلاني بالشاكّ أو الظانّ أو المتوهّم، فالشكّ هو عدم التصديق بشيء، والظن عدم تصديق الشيء مع الاعتقاد بوجوه عديدة وتأويلات متعددة، وتبقى هنا مسؤولية هذا القارئ هنا، الوقوف على مدى صحّة كلامه ودقّته، لكي تكون هناك دقّة في نقل المعلومة واختيارها اختيارًا صحيحًا، يبعد المتلقّي عن الرواية الضعيفة، فالشعر يختلف اختلافًا كليًا عن القُرآن، وقد نجد في بعض الأحيان نوعًا من التشابه، ما هذا التشابه إلّا كوضع الحافر على الحافر في بعض الأحيان، أو هي خواطر قد تتماثل.

في نقلة في القارئ لا يصرّح الباقلاني بقارئه الظانّ، وهو مُسيلمة الكذّاب، فمسيلمة بادّعائه النبوةّ، ومجيئه بما يسميه قُرآنًا جديدًا، أكثر فيه من السجعات، فقريش عجزت عن الإتيان

بمثل هذا القُرآن، يقول الباقلاني: ((فأمّا كلام (مُسيلمة) الكذّاب، وما زعم أنّه قُرآن، فهو أخس من أن نشتغل بهِ، وأسخف من أن نفكر فيه))[٣٤].

مسيلمة شكّ أو ظنّ بالقُرآن أنّه من عند رسول الله (ﷺ)، فأراد أن يأتي بمثله، فهو هنا قارئ متوهّم وظانّ بالقُرآن الكريم، ولم يعلم أنّ للقُرآن الكريم إعجازية لا يمكن لأحد الوصول إليها.

الارتياب: التردد في قبول شيءٍ ما، أو هو الشك في مدى صحّة هذا الأمر، يقول الباقلاني: ((وإنْ ارتبت فيما بيّناه فازدد في تعلّم الصنعة، وتقدّم في المعرفة، فستقع بك على الطريق الارشد، وسيقف بك على الوجه الأحمد، فإنّك إذا فعلت ذلك أحطت علمًا، وتيقّنت فهمًا))[٣٥].

القارئ الشاك متردد في قبول فكرة تعلّم الصنعة، فإنّه إن تعلّم الصنعة، وفهم فنونها، واكتسب معرفتها؛ فإنّه سيكون صاحب علم، واكتسابه للمعرفة، يجب أن تكون علاقته مع النصّ علاقة مشاركة ومنافسة في الوقت نفسه، علاقة اتّفاق في الأمور المتشابهة، واختلاف في الأمور المعقّدة التي تحتاج إلى إعادة ترتيب وهيكلة، والأهم من ذلك هي علاقة تداخل ثمّ تفاعل ثم تحوّل من أجل فهم سياق النصّ وتفتيته، ((تبعث الجسد، وتولّد اللذة))[٣٦]، فالقارئ والنصّ يتداخلان معًا ليصلا إلى الهدف المنشود، وتحقّق عملية التوصيل.

خامسًا: القارئ القائل:

إنّ القارئ القائل هو قارئ قد يكون عليمًا بأسرار صنعته، محاولًا إيجاد أسهل الطرق لإيصال فكرته، وتكمن مهارته في جعل المسافة بينه وبين المتلقّي أقرب ما يمكن.

يقول الباقلاني: ((وإنْ قال قائل: لعلّه لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدي، وإنّما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القُرآن))[٣٧].

إنّ وجود النص هنا مبهم، وهذا الإبهام لا يحققه ويفسّره إلّا القارئ، فله أهمّية في معرفة النص ومصيره، وهذا المصير تتحدّد به مدى مقبوليّة النصّ أو رفضه[٣٨].

القارئ القائل هو هنا يقترب من منزلة القارئ القائل الذي يسأل عن آيات التحدّي وعدم قراءتها، وهنا تبرز أهمّية القارئ وأثره الرئيسي في حضوره النصّي والمعرفي.

إنّ وظيفة القارئ القائل فكّ الإبهام، ورفع الموازنة بين شيئين، إلى شيء يفهمه المتلقّي، ويبعد عنه الشكّ والتخبّط في أمور صعبة، يقول الباقلاني: ((فإنْ قال قائل القُرآن مختلط من أوزان كلام العرب، ففيه من جنس خطبهم، ورسائلهم، وشعرهم، وسَجْعهم))[٣٩]، القُرآن يختلف عمّا قيل، فهو إبداع ربّاني، وهذا الإبداع يتمثّل بالإبداع والفصاحة، والباقلاني يعرض هذه الشبهات ليدحضها بالنظر والاستدلال، ليعزز رؤيته في الإعجاز.

ينقل الباقلاني قارئه القائل إلى حضرة الشعر، وموازنته بالقُرآن، قال الباقلاني: ((فإن قال قائل: أجدك تحاملت على امرئ القيس، ورأيت أنّ شعره يتفاوت بين اللين والشراسة)) [٤٠].

القارئ عند الباقلاني هو قارئ متمركز في ذهنه، ويتفاعل مع فكرة تبادل الأدوار، فهنا يسأل قارئه عن عدم جواز الموازنة بين الشعر والقُرآن، وإن احتوى الشعر على شيء من البلاغة والاستئناس واللطف.

الخاتمة:

للقراءة والقارئ أهمية كبيرة، وتكمن هذه الأهمية عن طريق استخراج مكنونات النص سواء أكان النص أدبيًا أو غير ذلك، وللقراءة خصوصية في الأدب العربي، ولها فلسفتها الخاصة؛ فنجد الباقلاني في كتابه (إعجاز القُرآن) أكد أهمية القارئ؛ إذ استحضر أنواعًا من القُرّاء؛ فجعله هذا الاستحضار ينُقل القارئ إلى ذهنه، بل القارئ متمركز في ذهنه؛ مِمَّا جعلهُ يفرد للقارئ أنواعًا عدّة، وإنّ لم يسمها ضمنًا؛ فتمثلت بأنواع عدّة؛ فمن قارئ سائل إلى محاور إلى قريب إلى قائل وشاك.

Abstract

The Reader in the Book Miracles of the Qur'an Baklani
A Ph. D. Dissertation extracted research

Asst. Ins. Laith Sami Alwan
(M.A.)
General Directory of
Education in Diyala

Prof. Ayaad Abdulwadood Othman
(Ph.D.)
University of Diyala
College of Education for Humanities

There is no doubt that the reader has an effective influence in enriching the work of the author of any book written in any science of science. Reading the book is a meaningful expressive message sent by the reader to the author explains the calendar and criticism highlighting the beauty and creativity of the text read or reveals the flaws of the text. There is no doubt that readers vary according to their culture and cognitive attitudes. They are varied for this as well as their readings, and the noblest reads are what is written in defense of the miracle of the Koran and defender of the great book of God.

الهوامش

(١) إعجاز القُرآن: الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، ط١، (د.ت): ٦.
(٢) المصدر نفسه: ٦٦.
(٣) إعجاز القُرآن: ١٠٧.
(٤) المصدر نفسه: ٦٨.
(٥) المصدر نفسه: ١٩٨.
(٦) أسرار البلاغة: ١٤١.
(٧) أسرار البلاغة: ١٠٨.
(٨) إعجاز القُرآن: ٣٠٠.
(٩) ينظر: مقالات في الأسلوبية: منذر العياشي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، ١٩٩٠: ١٤٤.
(١٠) ينظر: نظرية التلقي، كولوقلي:١٠٥.
(١١) إعجاز القُرآن للباقلاني:٢٦٠.
(١٢) إعجاز القُرآن (الباقلاني):٥٦.
(١٣) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ٣١.
(١٤) المصدر نفسه: ٣٩.

(١٥) إعجاز القُرآن (للباقلاني): ٢٤.
(١٦) المصدر نفسه: ٢٦.
(١٧) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ٢٥٠.
(١٨) ينظر: القارئ الضمني: ٢٤٦.
(١٩) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ٢١٥.
(٢٠) أمبرتو إيكو (Echo): القارئ في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: انطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٦م: ٦١.
(٢١) ينظر: القارئ الضمني في كتب إعجاز القُرآن: د. فاضل عبود التميمي، مجلة رؤية الفكرية، جامعة سوق أهراس، ع٣، ٢٠١٦م: ٦.
(٢٢) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ٣٧.
(٢٣) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ٧٦.
(٢٤) ينظر: إعجاز القُرآن للباقلاني، منهجه، ومسائله، وإشكالية بديعه: د. فاضل عبود التميمي، مطبعة جامعة ديالى، (د.ط)، ٢٠١١م: ٣٣.
(٢٥) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ٥٩.
(٢٦) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ١١٣.
(٢٧) حول أهمية الوظيفة الاجتماعية للتفسير في دراسة الأدب شتاينمتز، ترجمة: مصطفى رياض، مجلة فصول، مصر، م٥، ع٣، ١٩٨٥م: ٦٨.
(٢٨) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ١٢٠.
(٢٩) ينظر: فعل القراءة: ٥٦.
(٣٠) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ٢٥٤.
(٣١) ينظر: دراسات في القصة والمسرح: محمود تيمور، المطبعة النموذجية، بالحلمية الجديدة، (د.ط)، (د.ت): ١٧٤.
(٣٢) نظرية المنهج الشكلي: تأليف مجموعة من النقّاد الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، بيروت، دار الأبحاث العربية، (د.ط)، ١٩٨٢م: ١٧٥.
(٣٣) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ٢١٦.
(٣٤) المصدر نفسه: ١٥٦.
(٣٥) المصدر نفسه: ٣٠٤.
(٣٦) العمدة: ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، ١٩٨٥م: ١٤٥/١.
(٣٧) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ١٨.
(٣٨) ينظر: الخطيئة والتكفير: د. عبد الله الغذامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، (د.ط)، ١٩٨٥م: ٧٥.
(٣٩) إعجاز القُرآن (الباقلاني): ٦٢.

(٤٠) المصدر نفسه: ٢١٥.

المصادر والمراجع:

القُرآن الكريم.

- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدّة، ط١، ١٩٩١م.
- إعجاز القرآن للباقلاني (ت٤٠٣هـ)، منهجه، ومسائله، وإشكالية بديعه: د. فاضل عبود التميمي، مطبعة جامعة ديالى، (د.ط)، ٢٠١١م.
- إعجاز القرآن: الباقلاني، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، ط١، (د.ت).
- حول أهمية الوظيفة الاجتماعية للتفسير في دراسة الأدب شتاينمتز، ترجمة: مصطفى رياض، مجلة فصول، مصر، م٥، ع٣، ١٩٨٥م.
- الخطيئة والتكفير: د. عبد الله الغذامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، (د.ط)، ١٩٨٥م.
- دراسات في القصة والمسرح: محمود تيمور، المطبعة النموذجية، بالحلمية الجديدة، (د.ط)، (د.ت).
- العمدة: ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، ١٩٨٥م.
- القارئ الضمني في كتب إعجاز القرآن: د. فاضل عبود التميمي، مجلة رؤية الفكرية، جامعة سوق أهراس، ع٣، ٢٠١٦م.
- القارئ الضمني: ولف كانك آيزر، ترجمة: هناء خليف غني الدايني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٦م.
- القارئ في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: انطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٦م.
- مقالات في الأسلوبية: منذر عياشي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، ١٩٩٠.
- نظرية التلقّي خلفياتها الأبستمولوجية وعلاقتها بنظرية الاتصال: غنيمة كولوقلي، دار التنوير، (د.ط)، ٢٠١٣م.
- نظرية المنهج الشكلي: مجموعة من النقّاد الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، بيروت، دار الأبحاث العربية، (د.ط)، ١٩٨٢م.